الحرفية ، يغزلون بانفسهم خيوطهم ويحوكون الاقمشة ، كان ثمة عدد صغير من الصناعات (كانت صناعتا الغزل والحياكة مدموجتين). ولكن حين تضفي الرأسمالية على الانتاج طابعاً اجتماعياً ، يزداد عدد الصناعات المتمايزة من جهة ، غزل القطن ، ومن جهة اخرى ، الحياكة ؛ وهذا التخصص وهذا التمركز في الانتاج يتطلبان بدورهما صناعات جديدة : صنع الآلات ، استخراج الفحم الحجرى ، الخ ويقل عدد الرأسماليين بلا انقطاع في كل صناعة ازدادت الآن تخصصاً وهذا يعني ان الصلة الاجتماعية بين المنتجين تتعزز اكثر فاكثر ، وان المنتجين يتحدون في كل واحد كان كل من صغار المنتجين المنعزلين يقوم بعدة عمليات دفعة واحدة ، ولهذا كانوا مستقلين نسبياً بعضهم عن بعض فاذا كان الحرفي ، مثلا ، يزرع بنفسه الكتان ويغزل ويحوك بنفسه ، فقد كان مستقلا تقريباً عن الآخرين ان هذا النظام ، نظام صغار منتجي البضائع المنعزلين ، (وهذا النظام وحده) هو الذي كان يبرر المثل السائر «كل لنفسه والله للجميع» ، اي فوضى تقلبات السوق ولكن الامر يختلف تماماً مع جعل العمل اجتماعياً بسبب من الرأسمالية فان الصناعي الذي ينتج المنسوجات متعلق بالصناعي الذي يغزل القطن ، وهذا الاخير يتعلق بالرأسمالي المزارع الذي غرس القطن ، وصاحب مصنع الآلات ، وصاحب منجم الفحم الحجري ، الخ .، الخ وبالتالي ، لا يمكن لاي رأسمالي الاستغناء عن الآخرين وواضح ان المثل السائر القائل «كل لنفسه» لا يبقى ابدا قابلا للتطبيق في نظام كهذا ففي هذا النظام ، كل فرد يشتغل للجميع والجميع يشتغلون لكل فرد (ولا يبقى مكان لله ، لا بوصفه خيالا سماوياً ، ولا بوصفه «عجلا ذهبياً» ارضياً) ان طابع النظام يتغير كلياً فلو ان العمل ، في زمن المؤسسات الصغيرة المبعثرة ، توقف في احداها ، فان هذا التوقف ما كان ليؤثر الا في عدد صغير

من اعضاء المجتمع ، وما كان ليثير اي تشوش عام ، وكان لهذا السبب لا يسترعي الانتباه العـــام ، ولا يستثير تدخل المجتمع ولكن اذا حدث مثل هذا التوقف في مؤسسة كبيرة تعمل لصناعة ذات اختصاص قوي جداً ، وتشتغل بالتالي لكل المجتمع او تكاد ، وتتعلق بدورها بالمجتمع كله (وقصد التبسيط ، افترض الحالة التي يبلغ فيها اضفاء الطابع الاجتماعي الذروة) ، حينذاك ، لا بدّ من ان يتوقف العمل في جميع مؤسسات المجتمع الاخرى ، اذ انها لا تستطيع الحصول على المنتجات الضرورية الا من هذه المؤسسة ـ اذ انها لا تستطيع تصريف كل بضائعها الا اذا توافرت لها بضائع هذه المؤسسة وهكذا تندمج كل الصناعات في عملية انتاجيـــة اجتماعية واحدة ، بينما كل منها تخضع لقيادة رأسمالي واحد ، وتتوقف على مجرد ارادته ، وتسلمه النتاج الاجتماعي على سبيل الملكية الخاصة أليس من البديهي ان شكل الانتاج يدخـــل في تناقض لا حل له مع شكل التملك ؟ أليس من البديهي انه لا بدّ لهذا التملك بالضرورة ان يتكيف على شكل الانتاج ، ويصبـــح اجتماعياً ايضاً ، اي اشتراكياً ؟ وهذا التافه الضيق الافق الظريف من «اوتيتشيستفينييه زابيسكى» يحصر كل شيء في العمل تحت سقف واحد وفي الحقيقة ، هذا ما يقصد حين يقال ضل فلان ضلالا فاحشاً ! (انا لم اصف الا عملية مادية واحدة فقط ، الا تغير علاقات الانتاج ، ولم اتناول الجانب الاجتماعي من العملية ، لم اتناول جمع العمال وحشدهم وتنظيمهم ، لأن هذه ظاهرة مشتقة ، ثانوية .)

واذا كان ينبغي تفسير مثل هـــذه الامور البسيطـــة «للديموقراطيين» الروس ، فلأنهم غرقوا حتى آذانهم في حمـــاة الافكار البرجوازية الصغيرة الى حد انهم لا يستطيعون اطلاقـــاً ان يتصوروا نظماً غير النظم البرجوازية الصغيرة .

لنعد مع ذلك الى السيد ميخايلوفسكي فبم اعترض على الوقائع والحجج التي بنى ماركس عليها استنتاجه حول حتمية النظام الاشتراكي ، بموجب قوانين تطـور الرأسمالية نفسها ؟ فهل بيـن ان ليس ثمة في الواقع ،ـ في ظل التنظيم البضاعـي للاقتصاد الاجتماعيـ تخصص متنام في حركة العمل الاجتماعية ، ان ليس ثمة تمركز رساميل ومؤسسات ، ولا اصطباغ حركـة العمل كلها بالطابع الاجتماعي ؟ كلا ، انه لم يدل بشيء يدحض هذه الوقائع وهل قوّض الموضوعة القائلة ان الفوضى ملازمـة للمجتمع الرأسمالي ، تلك الفوضى التي لا تتلاءم مع اصطباغ العمل بالطابع الاجتماعي ؟ انه لم يقل شيئاً عن ذلك وهل حاول ان يبرهن ان اتحاد حركة عمل جميـع الرأسماليين في حركة عمل اجتماعية واحدة يمكن ان يتوافق مع الملكية الخاصة وان لهذا التناقض حلا ممكناً ومعقولا ، غير الذي اشار اليه ماركس ؟ كلا ، انه لم ينبس ببنت شفة عن كل هذا

فعلام يرتكز اذن انتقاده ؟ على تزويرات ، وتشويهات ، وسيول من التعابير والجمل الطنانة ، ليست سوى ترهات باطلة

وبالفعل ، هل يمكن ان ننعت بغير هذا النعت اساليب ناقد كدّس كثرة من الحماقات حول خطوات التاريخ الثلاثية المتوالية ، وراح بعد ذلك يطرح على ماركس هذا السؤال بلهجة جدية «وبعد ؟» اي : كيف سيتطور التاريخ ما وراء الحد النهائي الذي رسم خطوطه ؟ اليكم اذن لقد عرض ماركس بوضوح تام ، منذ بداية نشاطه الادبي والثوري ، ما يتطلبه من نظرية علم الاجتماع : ينبغي لها ان تصور بدقة الحركة الفعلية ، لا اكثر (راجع ، مثلا ، «البيان الشيوعي» حول مقياس نظرية الشيوعيين (٢٩)) وفي «رأس المال» ، تقيد ماركس بهذا المطلب تقيداً صارماً لقد استهدف تحليل التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية تحليلا علمياً ،

فسجل نقطة حين برهن ان تطور هذا التنظيم ، الذي يجرى عملياً تحت انظارنا ، انما يتجلى فيه ميل معين ، وانه لا بدّ لهـــذا التنظيم ان ينقرض حتماً ويتحول الى تنظيم جديد ، ارقى . والحال ، يدع السيد ميخايلوفسكي جانباً كل جوهر مذهب ماركس ، ويطرح هذا السؤال اللامتناهي الحماقة «وبعد ؟» ويضيف بلهجة رصينة عميقة «لا بد لي من الاقرار صراحة اني لا ادرك بوضوح كاف جواب انجلس» . وبالمقابل ، لا بد لنا من الاقرار لك صراحة ، ايها السيد ميخايلوفسكي ، اننا ندرك بوضوح تام روح مثل هذا «الانتقاد» واساليبه !

ولنسق ايضاً هذه النظرة «ان الملكية الفردية التي قـــال بها ماركس ، والتي تقوم على العمل الشخصي لم تكن ، في القرون الوسطى ، لا العامل الوحيد ، ولا العامل السائد ، حتى في مضمار العلاقات الاقتصادية كانت هناك حقاً اشياء كثيرة اخـــرى الى جانبها ، لا ترتاي مع ذلك الطريقة الديالكتيكية حسب مفهـــوم ماركس (ربما حسب تشويه السيد ميخايلوفسكي ؟) العـــودة اليها ومن الظاهر ان كل هذه المخططات لا تعطي صورة عـــن الواقع التاريخي ، ولا حتى عن مجرد نسبه ؛ انما تستجيب فقط لنزعة الفكر الانساني الى تصور كـــل شيء في حالاته الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل» حتى طرائقك في تشويه الحقيقة ، ايها السيد ميخايلوفسكي ، متماثلة تتقزز منها النفس ! اولا ، دس السيد ميخايلوفسكي في مخطط ماركس ــ الذي يقصد تعريف الحركة الفعلية لتطور الرأسمالية * لا غير ــ نية اثبات كل شيء

* اذا كانت سمات النظام الاقتصادي الاخرى في القرون الوسطى قد تركت جانباً فلأنها تتعلق بالتشكيلة الاجتماعية الاقطاعية بينما لا يدرس ماركس الا التشكيلة **الرأسمالية** ان حركة تطور الرأسمالية قد بدأت فعلا ، بشكلها الصافي ، (مثلا في انجلترا) بنظام صغار منتجي البضائع المتفرقين ، وبملكيتهم الفردية القائمة على عملهم .

بالثلاثيات ؛ ثم يلاحظ ان مخطط ماركس لا يستجيب لهـــذا التصميم ــ الذي نسبه اليه السيد ميخايلوفسكي (المرحلة الثالثة لا تعيد سوى جانب **واحد** من المرحلة الاولى وتهمل جميـــع الجوانب الاخرى) ــ ويخلص الى القول ، بعجرفة وخيلاء ، بان «المخطط لا يعكس ، على ما يبدو ، صورة الواقع التاريخي» !

فهل يمكن تصور جدال جدي مع انسان عاجز (حسب تعبير انجلس بصدد دوهرينغ) ، حتى بصورة استثنائية ، عن الاستشهاد بامانة ؟ وهل يبقى مجال للاعتراض حين يؤكد للجمهـــور ان المخطط ، «على ما يبدو» ، لا يستجيب للواقع ، وذلك دون اية محاولة حتى لتبيان عدم صحته في اية من نقاطه ؟

وبدلا من ان ينتقد السيد ميخايلوفسكي محتـــوى الآراء الماركسية الفعلي ، راح يمرّن حذلقته بصدد حالات المـــاضي والحاضر والمستقبل لقد قال انجلس ، مثلا ، في اعتراضاته على «الحقائق الخالدة» التي جاء بها السيد دوهرينغ «يعظوننـــا اليوم» باخلاق ثلاثية الاخلاق المسيحية الاقطاعيـــة والاخلاق البرجوازية والاخلاق البروليتارية ، بحيث ان لكل من المـــاضي والحاضر والمستقبل نظرياته الاخلاقية الخاصة (٣٠) وبهـــذا الصدد ، يناظر السيد ميخايلوفسكي كما يلي «اني اعتقـــد ان حالات الماضي والحاضر والمستقبل هي التي تشكل اساس كـــل انقسامات التاريخ الثلاثية الى مراحل» فاي عمق في التفكير ! ولكن من ذا الذي يجهل انه اذا نظر المرء الى اية ظاهرة اجتماعية في حركة تطورها ، وجد فيها دائما بقايا من الماضي ، واسسا من الحاضر ، وبذورا من المستقبل ؟ ولكن ، هل انجلس ، مثلا ، كان يريد القول بان تاريخ الاخلاق (لم يكن يتكلم الا عن «الحاضر») ينحصر بالحالات الثلاث المذكورة ؟ بان الاخلاق الاقطاعية لـم تسبقها ، مثلا ، اخلاق الرق ، وان اخلاق الرق لم تسبقها اخلاق

المشاعة الشيوعية البدائية ؟ غير ان السيد ميخايلوفسكي يتحفنا بسيل من الجمل الفارغة الطنانة ، بدلا من ان ينتقد جدياً محاولة انجلس لتفهم التيارات المعاصرة للافكار الاخلاقية عن طريق تفسيرها من وجهة النظر المادية !

وبصدد هذه الاساليب في «انتقاد» يبدأ ، عند السيد ميخايلوفسكي ، بهذا التصريح ، وهو انه يجهل في اي مؤلف يعرض المفهوم المادي عن التاريخ ، قد لا يكون من العبث ان نعيد الى الاذهان بانه مر زمن كان فيه صاحب التصريح يعرف احد هذه المؤلفات ويعرف كيف يقدره احسن من الآن ففي ١٨٧٧ ، ابدى السيد ميخايلوفسكي الرأي التالي عن «رأس المال» «اذا نزعنا عن «رأس المال» غطاءه الديالكتيكي الهيغلي الثقيل الفظ وغير الضروري (ما هذه الغرابة ؟ لماذا كان «الديالكتيك الهيغلي» «غير ضروري» في عام ١٨٧٧ بينما تعتمد المادية في عام ١٨٩٤ على «ما للعملية الديالكتيكية من طابع ثابت لا يمكن نكرانه» ؟) ، لرأينا حينذاك في هذا الكتاب ، بصرف النظر عن سائر مزاياه ، مجموعة من المواد مدروسة دراسة رائعة لحل هذه المسألة العامة ، مسألة العلاقة بين الاشكال وظروف وجودها المادية ، وطريقة ممتازة لطرح هذه المسألة في ميدان معين» . ــ «العلاقة بين الاشكال وظروف وجودها المادية» ، انما هي بالضبط مسألة العلاقة بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية ، مسألة البناء الفوقي للعلاقات الاجتماعية الفكرية فوق العلاقات المادية ، المسألة التي ينحصر مذهب المادية بالضبط في حلها حلا معيناً لنتابع

«وحقاً نقول ان **كل «رأس المال»** (اشارة التأكيد مني) مكرس لدراسة واقع انه متى ظهر شكل اجتماعي ، راح يتطور بلا انقطاع ويعزز سماته المميزة ، مخضعاً لنفسه ، مستوعباً الاكتشافات ، والاختراعات ، وتحسينات اساليب الانتاج ،

والاسواق الجديدة ، وحتى العلم بالذات ، مكرهاً اياها على العمل من اجله ؛ وهو مكرس اخيراً لدراسة واقع ان هذا الشكل المعني عاجز عن احتمال تغيرات جديدة في الظروف المادية»

يا للغرابة ! في ١٨٧٧ ، كان «كل «رأس المال»» مكرساً لدراسة شكل اجتماعي معني دراسة مادية (وما هي المادية اذن ان لم تكن تفسير الاشكال الاجتماعية بالظروف المادية ؟) ، ــ وفي ١٨٩٤ ، صرنا لا نعرف حتى اين ، في اي مؤلف ، يجب البحث عن عرض هذه المادية !

في ١٨٧٧ ، كان «رأس المال» يتضمن «دراسة» واقع ان «هذا الشكل المعني (اي الرأسمالي ، أليس كذلك ؟) عاجز عن احتمال (لاحظوا هذا جيداً) تغيرات جديدة في الظروف المادية» ، ــ وفي ١٨٩٤ ، يبدو انه لم يبق ثمة اية دراسة ؛ اما فيما يخص هذا الاقتناع بان الشكل الرأسمالي عاجز عن احتمال استمرار تطور القوى المنتجة ، فانه لا يعلق «الا في طرف الثلاثية الهيغلية» ! في ١٨٧٧ ، كتب السيد ميخايلوفسكي يقول ان «تحليل العلاقة بين شكل اجتماعي معين وظروف وجوده المادية سيبقى **الى الابد** (اشارة التاكيد مني) نصباً تذكارياً يشهد على ما يتحلى به المؤلف من قوة في المنطق وروعة في سعة الاطلاع» ، ــ وفي ١٨٩٤ ، يصرح ان مذهب المادية لم يجد قط ، في اي مكان ، اي تحقيق او تبرير علميين !

فيا للغرابة ! ماذا يعني هذا ، في الحقيقة ؟ ماذا حدث ؟

لقد حدث امران : اولا ، ان الاشتراكية **الروسية** ، الاشتراكية الفلاحية في سنوات العقد الثامن ، التي «تأففت» من الحرية لطابعها البرجوازي ، وكافحت «الليبراليين ذوي الجباه الناصعة» الذين بذلوا كل وسعهم لاخفاء تناحرات الحياة الروسية ، وحلمت بثورة فلاحية ، قد تفسخت كلياً ؛ فولدت هذه الليبرالية

البرجوازية الصغيرة المبتذلة التي ترى «انطباعات منعشة» في ميول الاقتصاد الفلاحي التقدمية ، ناسية ان هذه الميول انما يرافقها (ويشترطها) انتزاع ملكية الفلاحين بالجملة ثانيا ، في ١٨٧٧ ، كان السيد ميخايلوفسكي منساقاً وراء مقصده ، الدفاع عن «الدموي المزاج» (اي الاشتراكي والثوري) ماركس ضد النقاد الليبراليين ، الى حد انه لم يلاحظ ان طريقة ماركس لا تنسجم مع طريقته الخاصة ولكن ها هو انجلس ، في مقالاته وكتبه ، ها هم الاشتراكيون الديموقراطيون الروس (غالباً ما نجد عند بليخانوف ملاحظات صائبة جداً موجهة للسيد ميخايلوفسكي) يوضحون له هذا التناقض الذي لا حل له بين المادية الديالكتيكية وعلم الاجتماع الذاتي ، واذا السيد ميخايلوفسكي يجمح بكل بساطة بدلا من ان ينكب على اعادة دراسة المسألة بكل جد وهو بدلا من ان يرحب بماركس (كما في ١٨٧٢ و١٨٧٧) (٣١) ، ينبح الآن عليه ، محتمياً وراء مدائح مشكوك فيها ، ويثير ضجة كبرى ويرغي ويزبد ضد الماركسيين الروس الذين لا يريدون الاكتفاء «بحماية الاضعف اقتصادياً» ، وبمستودعات البضائع ، والتحسينات في الارياف ، والمتاحف والارتيلات * للحرفيين ، وغير ذلك من الامور التقدمية البرجوازية الصغيرة الحسنة النية ، ولكنهم يريدون ان يبقوا «دمويي المزاج» ، من انصار الثورة الاجتماعية ، ويعلّموا ويقودوا ، وينظموا العناصر الاجتماعية الثورية حقاً

بعد هذا الاستطراد البسيط في ميدان ماض بعيد ، يمكن ، كما اظن ، الانتهاء من تحليل «انتقاد» السيد ميخايلوفسكي

---

* الارتيل فريق من اشخاص يتحدون للعمل المشترك على اساس العقد الذي يحدد الاشتراك في الدخل والمسؤولية الجماعية . **الناشر** .

لنظرية ماركس . فلنحاول اذن استخلاص النتيجة وايجاز «حجج» الناقد .

ان المذهب الذي عنّ له ان يدمره ، انما يعتمد اولا على مفهوم مادي عن التاريخ ، وثانياً على الطريقة الديالكتيكية

ففيما يخص الاول ، اعلن الناقد في البدء انه لا يعرف في اي مؤلف عرضت المادية . وبما انه لم يجد هذا العرض في اي مكان ، راح يلفق بنفسه تعريفاً للمادية ولكي يعطي فكرة عن مغالاة هذه المادية في ادعاءاتها ، لفق ان الماديين يدعون انهم فسروا كل ماضي الانسانية وحاضرها ومستقبلها . ولكنه حين تبين فيما بعد ، استناداً الى البيان الاصلي للماركسيين ، ان التفسير لا يشمل الا تشكيلة اجتماعية واحدة ، قرر الناقد ان الماديين يضيقون مجال عمل المادية ، وانهم بذلك انما يضربون انفسهم بانفسهم ولكي يعطي فكرة عن طريقة صياغة هذه المادية ، ادعى ان الماديين اعترفوا بانفسهم بضعف معارفهم لاجل صياغة الاشتراكية العلمية ، رغم ان ماركس وانجلس اعترفا بضعف معارفهما (في ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦) في حقل التاريخ الاقتصادي بوجه عام ، ورغم انهما لم ينشرا قط المؤلف الذي يثبت ضعف معارفهما وبعد هذه المقدمة ، يتفضلون وينعمون علينا منتقدين لقد قضي على «رأس المال» بسبب انه لا يشمل سوى مرحلة واحدة ، بينما الناقد بحاجة الى جميع المراحل ، وبسبب ان «رأس المال» لا يؤكد المادية الاقتصادية ، بل لا يفعل غير ان يلمسها لمساً وهذه حجج ، كما يبدو ، لعلى قدر من الوزن والجد بحيث انه كان لا بدّ من الإعتراف بان المادية لم تبرر قط علمياً ثم يوردون ضد المادية واقع ان رجلا غريباً عن هذا المذهب تماماً ، ودرس ازمنة ما قبل التاريخ في بلد آخر تماماً ، قد توصل الى استنتاجات مادية ايضاً . ولكي يبين الناقد بعد ذاك انه كان من

الخطأ على الاطلاق مزج التناسل بالمادية ، وان هذا ليس سوى تلاعب بالالفاظ ، راح الناقد يبرهن ان العلاقات الاقتصادية تؤلف بناء فوقياً مقاماً على العلاقات الجنسية والعائلية واذا بالتعليمات التي يتكرم بها الناقد الجدي في هذه المناسبة عبرة للماديين ، تغنينا بهذه الحقيقة العميقة وهي ان الوراثة مستحيلة دون التناسل ، وان ذهنية معقدة «تلاصق» منتجات هذا التناسل ، وان الابناء يربون بروح الآباء والى جانب هذا ، علمنا ان الروابط القومية استمرار وتعميم للروابط العشائرية . وقد لاحظ الناقد ، في سياق ابحاثه النظرية عن المادية ، ان فحوى كثرة من حجج الماركسيين يكمن في ان اضطهاد الجماهير واستثمارها «ضروريان» في ظل النظام البرجوازي وان هذا النظام لا بد ان يتحول «بالضرورة» الى نظام اشتراكي ولم يلبث ان اعلن ان الضرورة جملة عامة جداً (الا اذا قيل بدقة ما يعنيه الناس بالضرورة) وان الماركسيين هم ، بالتالي ، صوفيون وميتافيزيقيون . كذلك يعلن الناقد ان نقاش ماركس مع المثاليين «وحيد الجانب» ولكنه لا ينبس ببنت شفة عن الموقف الذي تقفه آراء هؤلاء المثاليين من الطريقة الذاتية ، ولا عن موقف مادية ماركس الديالكتيكية من هذه الآراء

اما فيما يتعلق بدعامة الماركسية الثانية ـ الطريقة الديالكتيكية ـ فقد كفت دفعة واحدة من الناقد الشجاع لدك هذه الدعامة وكانت الدفعة صائبة جداً فقد بذل الناقد قصارى جهده وطاقته لكي يدحض امكانية البرهنة على اي شيء بواسطة الثلاثيات ؛ ولكنه لاذ بالصمت حول كون الطريقة الديالكتيكية لا تكمن ابداً في الثلاثيات ، بل بالضبط في نفي طرائق المثالية والذاتية في علم الاجتماع وهناك دفعة اخرى موجهة ضد ماركس خاصة : فبمساعدة السيد دوهرينغ الباسل ، ينسب الناقد الى

ماركس خراقة لا تصدق ، مفادها انه شاء ان يبرهن بواسطة الثلاثيات على حتمية هلاك الرأسمالية ، خراقة حاربها ناقدنا حرباً مظفرة .

هذه ملحمة «الانتصارات» الباهرة التي احرزها «عالمنا الاجتماعي المعروف» ! وما «افيد» (بورينين) تأمل هذه الانتصارات ، أليس كذلك ؟

ولا بد لنا ان نتحدث هنا عن امر آخر ، ليست له علاقة مباشرة مع انتقاد مذهب ماركس ، ولكنه ذو دلالة قصوى لفهم مثل الناقد العليا ومفهومه عن الواقع هذا الامر ، هو موقفه من الحركة العمالية في الغرب

لقد اوردنا اعلاه تصريح السيد ميخايلوفسكي القائل ان المادية لم تجد لها مبرراً في «العلم» (ربما في علم «اصدقاء الشعب» الالمان ؟) ، ولكن هذه المادية ، كما يناظر السيد ميخايلوفسكي ، «تنتشر فعلا بسرعة بالغة في صفوف الطبقة العاملة» وكيف يفسر السيد ميخايلوفسكي هذا الواقع ؟ انه يعلن : «اما فيما يتعلق بالنجاح الذي تلقاه المادية الاقتصادية ، من حيث السعة ، اذا جاز القول ، فيما يتعلق بانتشارها بشكل لم تثبت صحته بصورة انتقادية ، فان مركز ثقل هذا النجاح ليس في العلم ، بل في النشاط العملي اليومي الذي ترسمه آفاق المستقبل» فاي معنى يمكن ان يكون لهذه الجملة السيئة التركيب حول النشاط العملي الذي «ترسمه» آفاق المستقبل ، سوى ان المادية تنتشر ، لا لأنها فسرت الواقع تفسيراً صحيحاً ، بل لأنها انصرفت عن هذا الواقع الى الآفاق ؟ وقد جاء فيما بعد «ان هذه الآفاق لا تتطلب من الطبقة العاملة الالمانية التي تستوعبها ، ولا من الذين يهتمون بالغ الاهتمام بمصير هذه الطبقة ـ لا المعارف ، ولا العمل من جانب الفكر النقدي . انها لا تتطلب الا

الايمان» وبتعبير آخر ، ان انتشار المادية والاشتراكية العلمية من حيث السعة نابع من كون هذا المذهب يعد العمال بمستقبل افضل ولكن ، حسب المرء ان يكون ملماً بابسط المعلومات عن تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية في الغرب ، حتى يرى كل خراقة هذا التفسير وكل كذبه فكل انسان يعرف ان الاشتراكية العلمية لم ترسم قط أية آفاق للمستقبل بالذات فقد اكتفت بتحليل النظام البرجوازي الحالي ، ودراسة اتجاهات تطور التنظيم الاجتماعي الرأسمالي ، لا اكثر «نحن لا نقول للعالم «كف عن النضال ، فكل نضالك باطل» ؛ انما نعطيه الشعار الحقيقي للنضال انما نبين له فقط في سبيل اي غرض بالذات يناضل والحال ، ان الوعي لأمر **يجب** ان يكسبه العالم سواء شاء ام أبى» (٣٢) هكذا كتب ماركس فى ١٨٤٣ ، وقد نفذ هذا البرنامج بكل دقة ان كل امرئ يعرف ، مثلا ، ان «رأس المال» ، ــ هذا المؤلف الرئيسي والاساسي الذي يعرض الاشتراكية العلمية ــ يقتصر على اعم التلميحات بصدد المستقبل ، ولا يبحث غير العناصر الموجودة اليوم ، التى ينبثق منها النظام المقبل وفيما يخص آفاق المستقبل ،يعرف كل امرئ ان الاشتراكيين السابقين قد اعطوا منها اكثر بما لا حد له ، وهم الذين كانوا يرسمون المجتمع المقبل بكل تفاصيله ، رغبة منهم في اجتذاب الانسانية بصورة نظام لا يحتاج فيه الناس الى النضال ، ولا تقوم فيه علاقاتهم الاجتماعية على الاستثمار ، بل على مبادئ تقدمية حقيقية ، مطابقة للطبيعة البشرية . ومع ذلك ، ورغم ان كوكبة من ذوي المواهب الفذة عرضت هذه الافكار ، وكذلك طائفة من اشد الاشتراكيين اقتناعاً ، ظلت نظرياتهم على هامش الحياة ، وبرامجهم على هامش الحركات السياسية الشعبية ، طالما لم تجتذب الصناعة الآلية الكبيرة جماهير البروليتاريا العاملة الى دوامة الحياة السياسية

وطالما لم يوجد الشعار الحقيقي لنضالها وهذا الشعار وجده ماركس ، «الذي لم يكن طوباوياً ، بل كان عالماً صارماً ، واحياناً جافاً» ، كما وصفه السيد ميخايلوفسكي فى ازمنة بعيدة جداً ، في ١٨٧٢ ؛ وهذا الشعار لم يوجد بواسطة أية آفاق ، بل بالتحليل العلمي للنظام البرجوازي المعاصر ، بتفسير **ضرورة** الاستثمار في ظل مثل هذا النظام ، بدراسة قوانين تطوره وبديهي ان السيد ميخايلوفسكي يستطيع ان يؤكد لقراء «روسكويه بوغاتستفو» ان ليس ثمة حاجة ، من اجل فهم هذا التحليل ، لا الى المعارف ولا الى اعمال الفكر ولكنه سبق لنا ورأينا عنده (وسنرى اكثر ايضاً عند معاونه الاقتصادي (٣٣)) عدم تفهم فظ للحقائق الاولية التي اثبتها هذا التحليل بحيث ان مثل هذا القول لا يمكن بالطبع الا ان يثير الابتسام غير ان امراً يبقى بلا جدال ، هو ان الحركة العمالية تنتشر وتنمو بالضبط حيث تتطور الصناعة الآلية الرأسمالية الكبيرة وبقدر ما تتطور ؛ وان المذهب الاشتراكي يلقى النجاح بالضبط حين يطرح جانبا الآراء حول الشروط الاجتماعية المطابقة للطبيعة البشرية ، وينصرف الى تحليل العلاقات الاجتماعية المعاصرة تحليلا مادياً ، الى تفسير ضرورة النظام الحالي الاستثماري .

وبعد ان حاول السيد ميخايلوفسكي تجنب الاسباب الفعلية لنجاح المادية في اوساط العمال ، وذلك عن طريق وصفه موقف هذا المذهب من «الآفاق» وصفاً مخالفاً كلياً للحقيقة ، طفق يهزأ بصورة في منتهى الابتذال والتفاهة وضيق الافق من افكار الحركة العمالية في اوروبا الغربية ومن تكتيكها . ولقد كان عاجزاً تماماً ، كما رأينا ، عن الاتيان باية حجة ضد براهين ماركس حول حتمية تحول النظام الرأسمالي الى نظام اشتراكي من جرّاء جعل العمل اجتماعياً ، ــ ومع ذلك ، يسخر بمنتهى الصفاقة من كون «جيش

البروليتاريين» يحضّر لانتزاع ملكية الرأسماليين ، «وبعد ذاك ، ينتهي كل نضال طبقي ويحل في الارض السلام وفي الناس المسرة». اما السيد ميخايلوفسكي ، فهو يعرف سبلا ابسط وآمن بما لا حد له من اجل تحقيق الاشتراكية يكفى فقط ان يشير «اصدقاء الشعب» بتفاصيل اكثر قليلا الى السبل «الواضحة الثابتة» «للتطور الاقتصادي المنشود» ، ـ وحينذاك «سيدعى» «اصدقاء الشعب» هؤلاء بكل تأكيد الى حل «القضايا الاقتصادية العملية» (راجع مقال السيد يوجاكوف «قضايا التطور الاقتصادي في روسيا» ، «روسكويه بوغاتستفو» ، العدد ١١) ، ولكن حتى ذاك حتى ذاك ، يجب على العمال ان ينتظروا ، ويثقوا «باصدقاء الشعب» ، وان لا يخوضوا «بثقة بالنفس لا مبرر لها» ، اي نضال مستقل ضد المستثمِرين ان صاحبنا المؤلف ، رغبة منه في توجيه ضربة اخيرة قاضية لهذه «الثقة بالنفس التي لا مبرر لها» ، يستاء بصورة مؤثرة من «هذا العلم الذي يمكن ان يسعه قاموس جيبي او يكاد» فيا للفظاعة ، فعلا العلم ـ وكراريس اشتراكية-ديموقراطية بقرش واحد ، يمكن ان يسعها الجيب ! ! أليس واضحاً الى اي حد لا تبرير للثقة بالنفس عند هؤلاء الناس الذين لا يقدرون العلم الا بقدر ما يعلّم المستثمرين النضال بصورة مستقلة في سبيل انعتاقهم ، ويعلّم اجتناب جميع «اصدقاء الشعب» الذين يجهدون لطمس التناحرات الطبقية ويرغبون في ان يأخذوا الامر كله على عاتقهم ، عند هؤلاء الناس الذين يعرضون بالتالي هذا العلم في طبعات بقرش واحد تغيظ التافهين ، الضيقي الافق اشد الغيظ ان الحال قد يتحسن كثيراً لو ان العمال يسلمون قيادهم «لاصدقاء الشعب» فان هؤلاء سيبينون لهم في هذه الحال العلم الحقيقي ، الجامعي ، التافه ، الضيق الافق في كثرة من المجلدات ؛ ويطلعونهم بالتفصيل على

التنظيم الاجتماعي المطابق للطبيعة البشرية ، لو ان العمال يوافقون على الانتظار ولا يبدأون بانفسهم النضال بثقة في النفس لا مبرر لها !

قبل الانتقال الى الجزء الثاني من «انتقاد» السيد ميخايلوفسكي ، الموجه هذه المرة لا ضد نظرية ماركس بوجه عام ، بل ضد الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس بوجه خاص ، لا بد لنا من استطراد صغير فكما ان السيد ميخايلوفسكي اذ انتقد ماركس ، لم يحاول ان يعرض نظرية ماركس بصورة صحيحة ، وليس هذا وحسب ، بل شوهها تشويهاً ، ـ كذلك يشوه افكار الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس دون اي حياء فمن المهم اعادة الحقيقة . ولهذا الغرض ، يكون من الانسب مقارنة افكار الاشتراكيين الروس السابقين مع افكار الاشتراكيين-الديموقراطيين واني استقي عرض الافكار الاولى من مقال للسيد ميخايلوفسكي ، صدر في «روسكايا ميسل» (٣٤) ، عام ١٨٩٢ ، العدد ٦ ، وتحدث فيه ايضاً عن الماركسية (وتحدث عنها ـ ونحن نلومه على هذا ـ بلهجة لائقة ، دون ان يتطرق الى المسائل التي لا يمكن بحثها الا على طريقة بورينين في صحافة خاضعة للمراقبة ، اي دون ان يصب على الماركسيين سيولا من الاوحال والاقذار) وبالمقابل ، او على الاقل بصورة موازية ، عرض افكاره الخاصة وبالطبع ، انا لا اريد اطلاقاً ، لا ان اهين السيد ميخايلوفسكي ، اي لا ان اعتبره في عداد الاشتراكيين ، ولا ان اهين الاشتراكيين الروس بوضع السيد ميخايلوفسكي في مستواهم ، انما اعتقد فقط ان **سير البرهنة** عندهم وعنده ، واحد في الجوهر ، وان الفرق ينحصر في درجة الصلابة والاستقامة ، في انسجام المعتقدات وتماسكها .

وقد كتب السيد ميخايلوفسكي في سياق عرضه لافكار «اوتيتشيستفينييه زابيسكي» يقول «في عداد المثل العليا السياسية والاخلاقية ، ادخلنا امتلاك الارض من جانب المزارع وادوات العمل من جانب المنتج» ان نقطة الانطلاق ، كما ترون ، مفعمة باطيب النوايا ، زاخرة باحسن التمنيات «ان اشكال العمل التى لا تزال قائمة عندنا منذ القرون الوسطى * قد تزعزعت بشكل قوى ، ولكننا لم نر سبباً لدكها نهائياً وكلياً ارضاء لمذاهب ما ، سواء أكانت ليبيرالية ام غير ليبيرالية»

آراء غريبة ! ان اية «اشكال عمل» لا يمكن زعزعتها الا حين يستعاض عنها باخرى ؛ ومع ذلك لا نجد عند صاحبنا المؤلف (ولن نجد ايضاً عند اي من شركائه في الرأي) اية محاولة لتحليل هذه الاشكال الجديدة وتفسيرها ، ولا لتوضيح اسباب زحزحة الاشكال القديمة من قبل الجديدة وما هو اغرب ايضاً ، القسم الثاني من المقطع «نحن لم نر سبباً لدك هذه الاشكال نهائياً وكلياً ارضاء للمذاهب» فاية وسائل تتوافر «لنا» (نحن ، الاشتراكيين ، ــ راجع التحفظ اعلاه) «لدك» اشكال العمل «نهائيا» ، اي لاعادة بناء علاقات الانتاج القائمة بين افراد المجتمع ؟ أليست تلك فكرة خرقاء فكرة اعادة بناء هذه العلاقات طبقاً لمذهب معين ؟ لنستمع الى ما جاء فيما بعد «ان مهمتنا لا تقوم في استخلاص حضارة «اصيلة» تماماً من اعماق امتنا ؛ ولا

---

* وقد اوضح المؤلف في مكان آخر ما يعنيه «المقصود باشكال العمل من القرون الوسطى ليس فقط الامتلاك المشاعي للارض ، والصناعة الحرفية ، والارتيلات فهذه بلا جدال اشكال من القرون الوسطى ؛ ولكنه يجب ان تضاف اليها جميع اشكال امتلاك الارض او ادوات الانتاج من جانب الشغيل»

في نقل الحضارة الغربية بكليتها ، بكل التناقضات التي تمزقها ، الى بلادنا انما يجب ان نأخذ حيثما امكن ما هو صالح ؛ وسواء كان هذا الصالح قومياً ام اجنبياً ، فليست تلك مسألة مبدئية ، بل مسألة تسهيل عملي والامر بسيط وواضح ومفهوم الى حد ان من العبث التحدث عنه» وبالفعل ، ما ابسطه ! «خذ» في كل مكان ما هو صالح ، وتتم اللعبة ! من اشكال القرون الوسطى ، «خذ» امتلاك وسائل الانتاج من جانب الشغيل ، ومن الاشكال الجديدة (اي الرأسمالية) ، «خذ» الحرية ، والمساواة ، والتعليم ، والثقافة وكفى ان الطريقة الذاتية في علم الاجتماع هي هنا كأنها في بطن اليد يبدأ علم الاجتماع بالطوباوية ـ امتلاك الارض من جانب الشغيل ـ ويشير الى الشروط الواجبة لتحقيق ما هو مرغوب فيه «خذ» ما هو صالح هنا وهناك ان هذا الفيلسوف يعتبر ، بطريقة ميتافيزيقية صرف ، العلاقات الاجتماعية مجرد مجموعة آلية من هذه المؤسسات او تلك ، مجرد تسلسل آلي لهذه الظواهر او تلك وهو يفصل احدى هذه الظواهر ـ امتلاك الارض من جانب المزارع في اشكال القرون الوسطى ـ ويتصور انه يمكن نقلها وغرسها في جميع الاشكال الاخرى ، كأن تنقل قرميدة من مبنى الى آخر ولكن هذا لا يعني دراسة العلاقات الاجتماعية ، انما هو تشويه للمادة الواجبة دراستها لأن الواقع لا يعرف هذا الامتلاك ، المنفصل والمستقل ، للارض من جانب المزارع ، كما انت أخذته ، فهو ليس الا حلقة في سلسلة علاقات الانتاج في ذلك الزمن ، وقوامها ان الارض كانت مقسومة بين كبار اسياد الاراضي ، الملاكين العقاريين ، الذين كانوا يوزعونها على الفلاحين لاستثمارهم ، بحيث ان الارض كانت نوعاً من اجرة عينية كانت تعطي الفلاح المنتجات الضرورية ، لكي يتمكن من انتاج منتوج زائد للملاك العقاري ؛ وكانت الاساس الذي يتيح للفلاح ايفاء التزاماته

للملاك العقاري فلماذا لم يحاول المؤلف ان يحلل هذا النظام من علاقات الانتاج ، واقتصر على فصل ظاهرة واحدة منه ، وعرضها هكذا عرضاً خاطئاً تماماً ؟ لان المؤلف لا يعرف كيف يبحث المسائل الاجتماعية بل انه لا يبتغي اطلاقاً (واكرر اني لا آخذ محاكمات السيد ميخايلوفسكي الا كمثال لانتقاد **كل** الاشتراكية الروسية) **تفسير** «اشكال العمل» في ذلك العهد ، وعرضها على انها نظام معين من علاقات الانتاج ، على انها تشكيلة اجتماعية معينة . وهو ، حسب اسلوب ماركس في التعبير ، غريب عن الطريقة الديالكتيكية التي تتطلب اعتبار المجتمع جهازاً عضوياً حياً في عمله وتطوره

وهو ، دون ان يهتم ابداً بمعرفة اسباب زحزحة اشكال العمل القديمة من قبل الجديدة ، يكرر الخطأ ذاته تماماً حين يتناول هذه الاشكال الجديدة انه يكتفي بالقول ان هذه الاشكال «تزعزع» امتلاك الارض من جانب المزارع ، اي ، انها ، بوجه أعم ، تفصل المنتج عن وسائل الانتاج ، ــ لكي يشجب ذلك لعدم انطباقه على المثال الاعلى ومرة اخرى ، كانت مناقشته خرقاء كلياً فهو يفصل ظاهرة (انتزاع امتلاك الارض) ، حتى دون ان يحاول عرضها على انها عنصر من عناصر نظام آخر لعلاقات الانتاج ، قائم على **الاقتصاد البضاعي** الذي يولد بالضرورة المزاحمة بين منتجي البضائع ، والتفاوت ، وخراب بعضهم واثراء بعضهم الآخر وقد اشار الى احدى هذه الظواهر ــ خراب الجماهير ، مستبعداً الاخرى ــ اثراء الاقلية ، وهكذا اوقع نفسه في وضع لا يمكنه فيه لا فهم هذه الظاهرة ولا تلك

وهذه الطرائق هي التي يسميها «البحث عن الاجوبة على قضايا الحياة بشكلها المرتدي لحماً ودماً» («روسكويه بوغاتستفو» ، العدد ١ ، ١٨٩٤) في حين انه ، على العكس تماماً ، لا يعرف ولا يريد ان يفسر الواقع وان ينظر اليه وجهاً لوجه ،

فيتهرب بخزي من قضايا الحياة هذه ، مع ما يلازمها من نضال المالك ضد غير المالك ، الى نطاق الطوباويات البريئة ؛ وهذا ما يسميه «البحث عن الاجوبة على قضايا الحياة التي يطرحها الواقع الملح والمعقد طرحاً مثالياً» («روسكويه بوغاتستفو»، العدد ١) ، في حين انه حتى لم يحاول فعلا تحليل هذا الواقع الحي وتفسيره

وبدلا من هذا ، يقدم لنا طوباوية لفقهـــا بانتزاع بعض العناصر من مختلف التشكيلات الاجتماعيـــة انتزاعاً في منتهى الخراقـــة اخذ هذا العنصر من القرون الوسطى ، وذاك مـــن «التشكيلة الجديدة» ، الخ ومفهوم ان نظرية هذا اساسها لم يكن من الممكن ان لا تبقى على هامش التطور الاجتماعي الفعلي ، لسبب بسيط واحد هو ان طوباوييننا كانوا ملزمين بان يعيشوا ويعملوا ، لا في ظل علاقات اجتماعية مؤلفة من عناصر مأخوذة من هنـــا وهنـــاك ، بل في ظل علاقـــات تحدد العلاقـــات بين الفلاح والكولاك (الفلاح الغني) ، بين الحرفي والمحتكر ، بين العامل والصناعي ، ــ علاقات لم يفهموها اطلاقاً ان محاولاتهم وجهودهم لتعديل هذه العلاقات غير المفهومة وفقاً لمثالهم الاعلى ، لم يكن بامكانها ان تؤول الا الى الاخفاق .

هذه لمحة ، بخطوطها الكبرى ، عن الحالة التي بلغتها قضية الاشتراكية في روسيا ، حين «ظهر الماركسيون الروس»

وقد بدأ هؤلاء بانتقاد طرائق الاشتراكيين السابقين الذاتية ؛ ولم يكتفوا بملاحظة الاستثمار وشجبه ، فشاؤوا **تفسيره** وقد رأوا ان كل تاريخ روسيا بعد الاصلاح الزراعي يتصف بخراب الجماهير واثراء الاقلية وراقبوا انتزاع ملكية المنتجين الصغار على نطاق هائل مع التقدم التكنيكي العام ، ولاحظوا ان هذين الميلين المتضادين يظهران ويقويان حيث وبقدر ما يتطور الاقتصـــاد البضاعي ويرسخ ، ــ فلم يكن في وسعهم ان لا يخلصوا الى القـول

بانهم امام تنظيم برجوازي (رأسمالي) للاقتصاد الاجتماعي ، يولد **بالضرورة** انتزاع ملكية الجماهير واضطهادها وهذا الاقتناع هو الذي كان يحدد برنامجهم العملي مباشرة وقوامه الانضمام الى هذا النضال الذي تخوضه البروليتاريا ضد البرجوازية ، نضال الطبقات غير المالكة ضد الطبقات المالكة ، الى النضال الذي هو المحتوى الرئيسي للواقع الاقتصادي في روسيا ، من القرية النائيـــة حتى احدث المصانع الراقية وكيف الانضمام ؟ ــ ان الواقع نفسه اوحى لهم بالجواب ايضاً فان الرأسمالية قد قادت الفروع الصناعيـــة الرئيسية الى مرحلة الصناعة الآلية الكبيرة ؛ فهي ، اذ اضفت هكذا على الانتاج طابعاً اجتماعياً ، انما اوجدت الظروف المادية للنظم الجديدة ، وكونت في الوقت نفسه قوة اجتماعية جديدة طبقة عمال المصانع والمعامل ، بروليتاريا المدن وهذه الطبقة ، التي تعاني هذا الاستثمار البرجوازي نفسه الذي هو ، بحكم طبيعتـــه الاقتصادية ، استثمار كل السكان الكادحين في روسيا ، انما وضعت مع ذلك في احوال ملائمة بخاصة لانعتاقها فلم يبق ثمة ما يربطها بالمجتمع القديم القائم كلياً على الاستثمار ؛ فان شروط عملها وحياتها بالذات تنظمها ، وتجبرها على التفكير ، وتوفر لها امكانية الدخول في حلبة النضال السياسي وطبيعي ان يكون الاشتراكيون-الديموقراطيون قد اولوا هذه الطبقة كل انتباههم وعلقوا عليها كل آمالهم ؛ وان يرمي برنامجهم الى تطوير وعيها الطبقي ، وان يستهدف كل نشاطهم مساعدتها على خوض النضال السياسي المباشر ضد النظام الحالي وعلى اجتذاب مجمل البروليتاريا الروسية الى هذا النضال

لنر الآن كيف يحارب السيـــد ميخايلوفسكي الاشتراكيين-الديموقراطيين وبم يعارض آراءهم النظرية ؟ ونشاطهم السياسي الاشتراكي ؟

ان هذا الناقد يعرض آراء الماركسيين النظرية على النحو التالي :

«ان الحقيقة ــ برأي الماركسيين ، على حد زعمه ــ هي ان زوسيا ستطور انتاجها الرأسمالي ، وفقا للقوانين الملازمة للضرورة التاريخية ، مع كل ما ينطوي عليه هذا الانتاج من تناقضات داخلية ، ومع ابتلاع الرساميل الصغيرة من جانب الضخمة ؛ وفي هذه الاثناء ، يتحول الفلاح ، المنتزع من الارض ، الى بروليتاري ، ويتحد ، ويصبح اجتماعياً ، وتتم اللعبة ، ولا يبقى للانسانية الا ان تعيش بكل دعة وهناء»

تفضلوا وانظروا ان الماركسيين لا يمتازون ، اذن ، في شيء عن «اصدقاء الشعب» من حيث طريقة ادراكهم للواقع ، بل يمتازون عنهم فقط من حيث فكرتهم عن المستقبل اغلب الظن انهم لا يهتمون ابداً بالحاضر ، بل «بالآفاق» فقط ان يكون السيد ميخايلوفسكي يفكر بالضبط على هذا النحو ، فهذا ما لا سبيل الى الشك فيه فان الماركسيين ، كما يقول ، «مقتنعون تماماً بان ليس في تكهناتهم عن المستقبل اي شيء طوباوي ، ولكن كل شيء موزون ومقاس حسب العلم الدقيق» ؛ واخيراً ، ما هو اوضح ايضاً ان الماركسيين «يؤمنون وينادون بعصمة المخطط التاريخي المجرّد»

وبكلمة ، نحن نواجه تهمة من اشد التهم الموجهة ضد الماركسيين ابتذالا وسخفاً ، من تلك التي يستخدمها منذ زمن بعيد جميع الذين ليس لديهم ما يعترضون به على جوهر افكار الماركسيين «الماركسيون ينادون بعصمة المخطط التاريخي المجرد» !!

ولكن هذا مجرد كذب وتلفيق !

فما من ماركسي برهن قط في اي مكان بمعنى «انه يجب ان تكون» الرأسمالية في روسيا «لانها» وجدت في الغرب ، الخ ..

وما من ماركسي رأى قط في نظرية ماركس مخططاً فلسفياً تاريخياً الزامياً على الجميع ، شيئاً اكثر من تفسير لتشكيلة اجتماعية واقتصادية معينة فقط فيلسوف ذاتي واحد ، هو السيد ميخايلوفسكي ، لم يفهم ماركس الى حد انه اكتشف عنده نظرية فلسفية عامة ، ــ فاستحق هذا الجواب الصريح من ماركس وهو انه اخطأ في العنوان . ما من ماركسي بنى قط مفاهيمه الاشتراكية-الديموقراطية على غير مطابقتها مع واقع وتاريخ علاقات اجتماعية واقتصادية معينة ، اي روسية ؛ هذا مع العلم انه لم يكن بامكانه ان يبنيها على اساس آخر ، لأن هذا المقتضى من النظرية انما صاغه مؤسس «الماركسية» ، ماركس ، باقصى الدقة والوضوح ووضعه كحجر الزواية في اساس المذهب كله .

وبديهي ان السيد ميخايلوفسكي يستطيع ان يدحض هذه البيانات قدر ما يطيب له ، قائلا انه «بام اذنيه» سمع بالضبط عن المناداة بالمخطط التاريخي المجرد ولكن ما شأننا نحن ، الاشتراكيين-الديموقراطيين او اي كان ، اذا كان السيد ميخايلوفسكي قد سمع من محدثيه شتى الحماقات والسخافات ؟ أليس في ذلك مجرد دليل على انه موفق جداً في اختيار محدثيه ، لا اكثر ؟ وبديهي انه من الممكن جداً ان يكون هؤلاء المحدثون الظرفاء اصحاب الفيلسوف الظريف قد اعلنوا عن انفسهم انهم ماركسيون ، اشتراكيون-ديموقراطيون ، الخ ، ولكن من ذا الذي لا يعرف ان اي منحط تصادفه اليوم (كما لوحظ هذا منذ زمن بعيد) يطيب له ان يتبرج «بالاحمر» * ؟ واذا كان السيد

* كل هذا انما كتب على فرضية ان السيد ميخايلوفسكي سمع فعلا من ينادون بهذه المخططات التاريخية المجردة ، وانه لم يشوه شيئاً ومع ذلك اعتبر من الضروري تماماً ان ابدي هذا التحفظ وهو اني ابيع بالثمن الذي به اشتريت .

ميخايلوفسكي ثاقب البصيرة الى حد انه لا يستطيع ان يميز بين هؤلاء «المتبرجين» وبين الماركسيين ، او اذا كان قد فهم ماركس بعمق بالغ الى حد انه لم يلاحظ مقياس كل مذهبه ، الشديد البروز (صياغة «ما يحدث تحت انظارنا») ، ـ فان هذا يدل بكل بساطة ، هذه المرة ايضاً ، على ان السيد ميخايلوفسكي ليس ذكياً ابداً ، لا اكثر

وفي مطلق الاحوال ، ما دام قد اخذ على عاتقه ان يناظر في الصحافة ضد **الاشتراكيين-الديموقراطيين** ، فقد كان عليه ان يفكر بكتلة الاشتراكيين التي تحمل هذا الاسم منذ زمن طويل وتحمله هي وحدها ـ بحيث لا يمكن خلطها مع كتل اخرى ـ والتي لها ممثلوها الادبيون ـ بليخانوف وحلقته (٣٥) . ولو انه سلك هذا السلوك ـ وبديهي ان كل انسان محترم نوعاً كان يجب عليه ان يسلك هذا السلوك ، ـ ولو انه راجع على الاقل اول مؤلف اشتراكي-ديموقراطي ، كتاب بليخانوف «خلافاتنا» ، لرأى ، منذ الصفحات الاولى ، البيان القاطع الذي ادلى به المؤلّف باسم جميع اعضاء الحلقة

«اننا لا نريد في اي حال ان نغطي برنامجنا بمكانة اسم كبير» (اي بمكانة ماركس) فهل تفهم ايها السيد ميخايلوفسكي ما يعنيه الكلام ؟ هل تفهم الفرق بين المناداة بمخططات مجردة وبين نفي كل مكانة لماركس في تقدير الامور الروسية ؟

هل تفهم انك ، اذ تعتبر اول رأي تسنى لك ان تسمعه من افواه محدثيك ماركسياً وتهمل البيان الذي نشره عضو من اعضاء الاشتراكية-الديموقراطية البارزين باسم كل الفرقة ، انما سلكت سلوكاً غير شريف ؟

وفيما بعد ، ازداد البيان وضوحاً ودقة يقول بليخانوف

«اني اكرر . من الممكن ان يحدث خلاف بين اكثر الماركسيين انسجاماً فيما يخص تقدير الواقع الروسي في ايامنا» ؛ ان مذهبنا

هو «اول تجربة لتطبيق هذه النظرية العلمية على تحليل علاقات اجتماعية في غاية التعقيد والغموض»

واظن انه لا يمكن ان يكون ثمة قول اكثر وضوحاً وصراحة ان الماركسيين يستمدون بلا قيد ولا شرط من نظرية ماركس مجرد الاساليب القيمة التي يستحيل بدونها فهم العلاقات الاجتماعية ؛ وبالتالي ، فان مقياس تقديرهم لهذه العلاقات لا يرونه اطلاقاً في مخططات مجردة وغيرها من السخافات ، بل في صحة هذا التقدير ومطابقته مع الواقع .

او ربما تظنون ان المؤلف كان يفكر بغير ذلك حين ادلى بمثل هذه البيانات ؟ هذا خطأ فالمسألة التي كانت تهمه هي التالية «هل يجب على روسيا ان تمر بمرحلة التطور الرأسمالية ؟» ولذا فان المسألة لم ترد ابداً بصيغة ماركسية ، بل حسب المناهج الذاتية المستقاة من مختلف فلاسفة بلادنا ، ممن كانوا يرون مقياس هذا الواجب ، اما في سياسة السلطات ، واما في نشاط «المجتمع» ، واما في المثال الاعلى عن مجتمع «مطابق للطبيعة البشرية» وغيرها من الترهات المماثلة واننا لنتساءل الآن كيف يجب على انسان ينادي بمخططات مجردة ان يجيب عن مثل هذا السؤال ؟ من البديهي انه سيتحدث عن طابع المجرى الديالكتيكي الثابت الذي لا يمكن نكرانه ، والاهمية الفلسفية العامة لنظرية ماركس وحتمية مرور كل بلد عبر مرحلة .. ، الخ ، الخ

وكيف اجاب بليخانوف ؟

بالطريقة الوحيدة التي يمكن ان يجيب بها الماركسي

فقد ترك جانباً تماماً مسألة الواجب باعتبارها لغواً لا فائدة منه ولا يمكن لها ان تهم الا الذاتيين ؛ وتحدث طوال الوقت عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الفعلية ، وعن تطورها الفعلي ولهذا فانه لم يعط جواباً مباشراً على سؤال اسيىء طرحه

بهذا الشكل وبدلا من هذا ، اجاب «ان روسيا **قد ولجت** الطريق الرأسمالي»

اما السيد ميخايلوفسكي ، فانه يسهب ، بلهجة الخبير العارف ، في المناداة بالمخطط التاريخي المجرد ، وفي القوانين الملازمة للضرورة ، وغير ذلك من السفاسف التي لا تصدق ! ثم يسمي ذلك «مناظرة ضد الاشتراكيين-الديموقراطيين» !!

يقيناً اني لا استطيع الى الفهم سبيلا : فاذا كان هذا مناظراً ، ترى ، من هو المهذار آنذاك ؟ !

ولا يسعنا الا ان نلاحظ بصدد مناظرة السيد ميخايلوفسكي المذكورة اعلاه ، انه يعرض آراء الاشتراكيين-الديموقراطيين كما يلي «ان روسيا **ستطور** انتاجها الرأسمالي الخاص» برأي هذا الفيلسوف ، على ما يبدو ، ان روسيا لا تملك انتاجها الرأسمالي «الخاص» ومن المحتمل ان المؤلف يشاطر الرأي القائل ان الرأسمالية الروسية تنحصر في مليون ونصف مليون من العمال ، ـ وسنجد ايضاً فيما بعد هذه الفكرة الصبيانية لاصحابنا «اصدقاء الشعب» الذين لا يُعرف اين يصنفون جميع اساليب استثمار العمل الحر الاخرى «ان روسيا ستطور انتاجها الرأسمالي الخاص ، مع كل ما ينطوي عليه هذا الانتاج من تناقضات داخلية ؛ وفي هذه الاثناء ، يتحول الفلاح المنتزع من الارض الى بروليتاري» كلما تقدمنا ، كلما وجدنا دررا ! اذن ، في روسيا لا توجد «تناقضات داخلية» ؟ اي ، اذا تكلمنا صراحة ، لا يوجد اي استثمار لجمهور الشعب من جانب حفنة من الرأسماليين ؟ لا يوجد خراب اغلبية السكان الساحقة واثراء حفنة من الافراد ؟ وانتزاع الفلاح من الارض ينتظره فقط ؟ ولكن فيم يكمن اذن كل تاريخ روسيا فيما بعد الاصلاح الزراعي ان لم يكن في انتزاع ملكية الفلاحين بالجملة ، وبشدة لا مثيل لها في اي مكان ؟ لا بد من قدر

كبير من الشجاعة لاعلان مثل هذه الاشياء جهاراً ! وعند السيد ميخايلوفسكي هذه الشجاعة «لقد عمل ماركس على بروليتاريا جاهزة تماماً ورأسمالية جاهزة تماماً ، بينا يجب علينا ان نخلقهما» يجب على روسيا ان تخلق بروليتارياها ؟ ! في روسيا ، في هذا البلد الوحيد الذي يمكنك ان تجد فيه مثل هذا البؤس القاتل الذي تعانيه الجماهير ، مثل هذا الاستثمار الوقح الذي يرزح تحته الشغيل ، في هذا البلد الذي كان يقارن (بحق) بانجلترا من حيث حالة طبقاته الفقيرة ، وحيث المجاعة التي تشمل ملايين الناس ظاهرة دائمة ، الى جانب ، مثلا ، تصدير الحبوب المتزايد على الدوام ، ــ في روسيا ، لا توجد بروليتاريا !!

اظن انه يجب نصب تمثال للسيد ميخايلوفسكي في حياته تقديراً لهذه الاقوال الكلاسيكية ! *

وعلى كل حال ، سنرى ايضاً فيما بعد ان هذا تكتيك دائب وبالغ الانسجام يتبعه «اصدقاء الشعب» وقوامه اغماض العين نفاقاً ورياء على وضع شغيلة روسيا الذي لا يطاق ، وتصويره على انه «مزعزع» فقط ، بحيث تكفي جهود «المجتمع المثقف» والحكومة لاعادة كل شيء الى الطريق القويم ان هؤلاء الفرسان

---

* من الممكن ، في كل حال ، ان يحاول السيد ميخايلوفسكي ، هنا ايضاً ، التخلص من الورطة لم اقصد قط ان اقول انه لا توجد بروليتاريا في روسيا اطلاقاً ، ولكن انه لا توجد بروليتاريا رأسمالية صرف حقاً ؟ ولكن ، لم لا تقول هذا اذن ؟ **ان كل المسألة** تنحصر على وجه الضبط فيما يلي هل البروليتاريا الروسية هي تلك البروليتاريا الملازمة للتنظيم البرجوازي للاقتصاد الاجتماعي ام بروليتاريا اخرى ؟ وعلى من الذنب ، اذا كنت طوال مقالين اثنين ، لم تذكر **كلمة واحدة** حول هذه المسالة ، المسالة الوحيدة الجدية والهامة ، واذا كنت فضلت النطق بشتى الحماقات ، وبلغ بك الامر حد الهذيان ؟

يتصورون انهم اذا ما اغمضوا عيونهم على واقع ان وضع الجماهير الكادحة سيى لا لأنه «مزعزع» ، بل لأن هذه الجماهير تعاني نهباً وقحاً من جانب حفنة من المستثمِرين ، واذا كانوا يخفون رؤوسهم كالنعام لكي لا يروا هؤلاء المستثمِرين ، ـ فان هؤلاء المستثمِرين سيزولون وحين يقول لهم الاشتراكيون-الديموقراطيون ان من العار والسفالة ان يخاف المرء من رؤية الواقع وجهاً لوجه ، وحين يأخذون الاستثمار نقطة انطلاق لهم ويقولون ان التفسير الوحيد الممكن له يقوم في التنظيم البرجوازي للمجتمع الروسي ، هذا التنظيم الذي يقسم سواد الشعب الى بروليتاريا وبرجوازية ، وفي الطابع الطبقي للدولة الروسية ، التي ليست سوى جهاز لسيطرة هذه البرجوازية ؛ وان **الحل الوحيد** ، لهذا السبب ، يكمن في نضال البروليتاريا الطبقي ضد البرجوازية، ـ حينذاك ، يأخذ «اصدقاء الشعب» هؤلاء في الصياح والزعيق ان الاشتراكيين-الديموقراطيين يريدون انتزاع الارض من الشعب !! انهم يريدون تحطيم تنظيمنا الاقتصادي الشعبي !!

ونتناول الآن النقطة الاشد تنفيراً في كل هذه «المناظرة» غير اللائقة على اقل تقدير ، واعني بها «انتقاد» (؟) السيد ميخايلوفسكي لنشاط الاشتراكيين-الديموقراطيين السياسي يعرف الجميع ان نشاط الاشتراكيين والدعاة بين العمال لا يمكن ان يكون موضع مناقشة منزهة في صحافتنا الشرعية ، وان اقصى ما تستطيعه صحافة لائقة خاضعة للمراقبة في هذا المجال ، «ان تسكت بفطانة» وقد نسي السيد ميخايلوفسكي هذه القاعدة الاولية ، ولم يحمر وجهه خجلا من استغلال احتكاره لامكان التوجه الى الجمهور القارئ ، من اجل شتم الاشتراكيين وتحقيرهم

ولكنه ستتوفر ، خارج الصحف الشرعية ، الوسائل اللازمة لمحاربة هذا الناقد الوقح !

قال السيد ميخايلوفسكي متظاهراً بالسذاجة «حسبما فهمت ، يمكن تقسيم الماركسيين الروس الى ثلاث فئات الماركسيون المتفرجون (مراقبو العملية اللامبالون) ؛ الماركسيون الخاملون (الذين «يلطفون آلام الولادة» وحسب ، فهم «لا يهتمون بالشعب المتعلق بالارض ، ويتوجهون بانتباههم وآمالهم نحو الذين فصلوا عن وسائل الانتاج») ؛ والماركسيون النشطاء (الذين يلحون صراحة على استمرار خراب الريف)»

ماذا يعني هذا ؟! ان حضرة الناقد لا يستطيع مع ذلك ان يجهل ان الماركسيين الروس هم اشتراكيون ينطلقون من هذا المفهوم عن الواقع وهو ان المجتمع مجتمع رأسمالي ، وان الوسيلة الوحيدة للخروج منه تنحصر في نضال البروليتاريا الطبقي ضد البرجوازية فكيف ، وباي حق يخلط بينهم وبين ابتذال غريب لا معنى له ؟ باى حق (اخلاقي طبعاً) يشمل بلقب الماركسيين اناساً لا يقبلون ، على ما يظهر ، المبادئ الاولية والاساسية للماركسية ، اناساً لم يعملوا قط في اي مكان كفئة مستقلة ، اناساً لم يعلنوا قط وفي اي مكان برنامجاً خاصاً ؟

لقد دبر السيد ميخايلوفسكي جملة من المنافذ لتبرير مثل هذه الاساليب الفاضحة

فهو يقول لاذعا بخفة شاب متغطرس من المجتمع «الراقي»

«ربما ليسوا بماركسيين حقيقيين ، ولكنهم يعتبرون انفسهم ويعلنون عن انفسهم كذلك» اين ومتى ؟ في صالونات بطرسبورغ الليبيرالية والراديكالية ؟ في رسائل خاصة ؟ لنفترض ذلك . ولكن ، في هذه الحال ، تحدثوا معهم في صالوناتكم ، في مراسلاتكم ! غير انكم تحملون علناً وفي الصحافة ضد اناس لم يقوموا (تحت راية الماركسية) قط علناً باي عمل في اي مكان كان . وبعد هذا ،

تتجاسرون وتعلنون انكم تناظرون ضد **الاشتراكيين-الديموقراطيين** وانتم على علم بان هذا الاسم تحمله كتلة **واحدة** فقط من الثوريين الاشتراكيين وانه لا يمكن خلط اي شخص معها ! *

ويوارب السيد ميخايلوفسكي ويلف ويدور ويرتبك كتلميذ مُسِك مذنبا انا لا علاقة لي ابداً ؛ هكذا يسعى الى اقنـــاع القارئ ، «سمعت بام اذني ورأيت بام عيني» جيد جداً ! اننا نصدق بكل طيبة خاطر ان عينيك لا تقعان الا على اشخاص سفلة ، اوغاد ، ولكن في هذه الحال ، ما هو شأننـــا ، نحن الاشتراكيين-الديموقراطيين ؟ فمن ذا الذي يجهل اننا «في الوقت الحاضر حيث» كل نشاط اجتماعي ، لا اشتراكي وحسب ، بل ايضاً مستقـــل وشريف نوعاً ، يستتبع ملاحقات سياسية ، نجد ، لكل شخص واحد يعمل حقاً تحت هذه الراية او تلك ــ «نارودنايا فوليـــا» (٣٦) ، او الماركسية ، او حتى مثلا ، الدستوريـــــة ــ عشرات وعشرات من منمقي الجمل يغطون بهذا الاسم جبنهم الليبيرالي ،

---

* سأتناول على الاقل الاشارة الوحيدة-**الواقعية** الواردة عند السيد ميخايلوفسكي ان من يقرأ مقاله ، لا بدّ له ان يعترف بانه يصنف حتى السيد سكفورتسوف (صاحب «المجاعات واسبابها الاقتصادية») في عداد «الماركسيين» مع ان هذا السيد عينه لا يعتبر نفسه كذلك ؛ حسب المرء مجرد الالمام البسيط بمؤلفات الاشتراكيين-الديموقراطيين لكي يرى انه ، من وجهة نظرهم ، اكثر البرجوازيين ابتذالا ، لا غير فاي ماركسي هذا الشخص الذي لا يفهم ان الوسط الاجتماعي الذي يضع المشاريع لتقدمه هو الوسط البرجوازي ؛ وان جميع «تحسينات الثقافة» التي تبدو فعلا حتى في الاقتصاد الفلاحي ، تعني ، لهذا السبب ، تقدماً برجوازياً يحسن وضع الاقلية ويحول الجماهير الى بروليتاريا ! واي ماركسي هذا الشخص الذي لا يفهم ان الدولة التي يوجه لها مشاريعه ، هي دولة طبقية ، قادرة فقط على دعم البرجوازية واضطهاد البروليتاريا !

وربما ايضاً بعض الاوغاد حقاً وفعلا الذين يرتبون امورهم الخاصة ؟ أليس من البديهي ان السفالة المغرقة في الابتذال وحدها هي التي تستطيع ان تتهم اياً من هذه الاتجاهات بان لواءه يوسخـــه (لا امام الملأ ولا بصورة مكشوفة مع ذلك) شتى الرجـــال البائرين ؟ ان كل عرض السيد ميخايلوفسكي ليس سوى سلسلة متواصلة من التشويهات والتحريفات والتزويرات لقد رأينا اعلاه حرّف تماماً «الحقائق» التي يرتكز عليها الاشتراكيون-الديموقراطيون ، وانه عرضها كما لم يعرضها اي ماركسي في اي مكان وزمان ولم يكن بوسعه ان يعرضها ولو انـــه عرض مفهـــوم الاشتراكيين-الديموقراطيين الحقيقي عن الواقع الروسي ، لاضطر ان يرى ان ليس ثمة **سوى طريقة واحدة** «للتقيد» بهذه الآراء ، وهي الاسهام في تطوير وعي البروليتاريا الطبقي وتنظيم البروليتاريا وحشدها للنضال السياسي ضد النظام القائم ولكنه يحتفظ بحيلة اخرى فهو يرفع عينيه الى السماء نفاقاً وينطق بعذوبة ، وبلهجة بريء «انه ليسعـــدني جداً ان اسمع هذا ، ولكني لا اعرف على مـــا تعترضون» (هذا ما يقولـــه في العدد ٢ من «روسكويـــه بوغاتستفو») ، «اقرأوا بمزيد من الانتباه حكمي على الماركسيين الخاملين ، تروا اني اقول من وجهة النظر الاخلاقية ، ليس ثمة ما يعترض عليه»

وطبيعي ان ليس في هذا الكلام سوى علك ممل لشعـــوذات قديمة وحقيرة

قل لي ، من فضلك ، كيف تنعت سلوك انسان يعلن انـــه ينتقد الشعبية الثورية الاجتماعية (٣٧) (الاخرى لم تكن قـــد ظهرت بعد آخذ تلك المرحلة) ويقول اشياء من النوع التالي

«ان الشعبيين ، حسبما افهم ، ينقسمون الى ثلاث فئات الشعبيون المنسجمون ، الذين يتبنون افكار الفلاح كلياً ، وبالتوافق

التام مع رغباته ، يعممون السوط وضرب النساء ، ويطبقون بوجه عام تلك السياسة الشائنة التي تطبقها حكومة السوط والعصا ، تلك السياسة التي اسميت سياسة شعبية ؛ ثم الشعبيون الجبنـــاء الذين لا يهمهم رأي الفلاح ويحاولون فقط ان ينقلوا الى روسيـــا حركة ثورية غريبة عنها ، بواسطة الجمعيات ، الخ .ـ وهذا ، في كل حال ، ما لا يمكن الاعتراض عليه من وجهة النظر الاخلاقية ، لولا الطريق الزلق الذي قد يقود بسهولة الشعبي الجبان الى الشعبي المنسجم او الشجاع ؛ واخيراً ، الشعبيون الشجعان الذين يحققون المثل الاعلى الشعبي للفلاح الميسور ، بكل مداه ، ويقيمون بالتالي في الارض لكي يتصرفوا تصرفات الكولاك مباشرة» ،ـ ان كل انسان يحترم نفسه ينعت هذا القول ، طبعاً ، بانه تهكم سافل وحقير وفضلا عن ذلك ، لو ان الانسان الذي تشدق بمثل هذه الاشياء ، لا يمكن للشعبيين ان يكذبوه في الصحافة نفسها ؛ ولو ان افـــكار هؤلاء الشعبيين ، من جهة اخرى ، لم تعرض حتى ذاك الا بصـورة غير شرعية ، بحيث ان كثيرين لم يكن في وسعهم ان يكونوا فكرة صحيحة عنها وقد يصدقون بسهولة كل ما يقال لهم عن الشعبيين ، لكان الجميع يوافقون على القول بان مثل هذا الانسان

وفي كل حال ، من الممكن ان السيد ميخايلوفسكي نفسه لم ينس بعد تماماً الكلمة التي يجب ايرادها هنا

كفى ! هناك ايضاً نمائم كثيرة من هذا النوع عند السيـــد ميخايلوفسكي ولكني لا اعرف عملا اشد اعيـــاء ، واكثر تنفيراً واقل فائدة من الغوص في هذا الوحل ، وجمع التلميحات المزروعة هنا وهناك ، ومقارنة بعضها ببعض لاكتشاف حجة واحدة جديـــة نوعاً على الاقل

كفى !

نيسان (ابريل) ١٨٩٤ .